مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (18) العدد (11) 1996
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research – Arts and Humanities Series Vol. (18) No (11) 1996

أوضاع اليمن الاجتماعية والاقتصادية قبل الإسلام

الدكتور محسن يونس*

ما هو معروف في واقع تاريخنا العربي أن معظم المؤرخين العرب أعطوا جلّ جهدهم في بحث مجمل القضايا المتعلقة بتاريخنا العربي من الجانب السياسي والاقتصادي والحضاري... في الفترة الإسلامية وما بعدها وبقي قسم مهم من تاريخنا لم ينل نصيبه الذي يستحقه من الباحثين قياساً بالفترات التاريخية الأخرى آنفة الذكر ألا وهو تاريخ العرب القديم (عصر ما قبل الإسلام).

ومن خلال البحث في مصادرنا العربية المختلفة الموجودة بين صفحات تصانيف الإخباريين أو من خلال الكتابات القديمة المنقوشة على الأوابد الأثرية تم التعرف على جوانب هامة من حضارتنا العربية القديمة. وهنا يتعرض هذا البحث إلى الجانب الاجتماعي والاقتصادي لمجتمع جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن) العائد لتلك الفترة مما يسمح بالتعرف على طبقات المجتمع وعاداته وتقاليده وأبرز مميزاته ومن الجانب اقتصادي محاولة التعرف على أوجه نشاط الإنسان العربي في جوانبه المختلفة الزراعية منها والتجارية والصناعية بالإضافة إلى الحياة الحرفية بشكل عام.

وفي الختام لابد لي من الإشارة إلى أن مجتمعنا العربي في شبه الجزيرة العربية كان مجتمعاً مستقراً حضارياً بنى القرى والمدن وكانت له علاقاته الدولية المميزة مع الحضارات الأخرى المجاورة باعتراف المصادر العربية والكلاسيكية المتعددة المعاصرة لتلك الفترة آملاً بعد هذا الجهد في وضع لبنة مهمة مهما كان حجمها في صرح بناء تاريخنا العربي القديم.

* مدرس في قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

تكون المجتمع العربي اليمني من قبائل عربية متعددة انقسمت بحكم بنيانها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي إلى قسمين أساسيين:

أ- قبائل متحضرة.

ب- قبائل بدوية.

وقد ذكرت هذه التقسيمات ف مؤلفات النسّابة العرب والإخباريين الذين عرّفوا القبائل المتحضرة باسم أهل المدر بينما عرّفوا القبائل المتبدية باسم أهل الوبر.

كان لكل قسم من هذين القسمين خصائصه ومميزاته التي فرقته عن الآخر. فأهل المدر هم أصحاب المجتمع المستقر المتحضر الذي بنى المساكن والقرى في أنحاء مختلفة من أرض اليمن وعاش هؤلاء على ممارسة التجارة والزراعة بشتى ألوانها وصنوفها، كما بنوا كل ما بإمكانهم بناؤه لخدمة زراعتهم من سدود وشقوا قنوات الري وحفروا الصهاريج الصخرية والآبار وغير ذلك من أمور تفيد في استنبات الأرض وإعطاء أفضل المحاصيل[1].

بالإضافة إلى ذلك، فقد عني أصحاب هذا المجتمع بتربية الحيوانات واستفادوا منها استفادة كبيرة في جوانب حياتهم الاجتماعية كاملة.

أما أهل الوبر[2]: فهم من القبائل التي جعلت من البادية مسكناً لها وقد حافظوا على بداوتهم واعتمدوا في معيشتهم على ما أنتجته حيواناتهم منتجعين منابت الكلأ مرتادين مواقع المياه يخيمون هنا وهناك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي. وقد أشار الرسوم صلى الله عليه وسلم إلى وجود هذا التقسيم الاجتماعي في القبائل العربية اليمنية (حضر – بدو) عندما ذكر في العهد الذي كتبه عليه الصلاة والسلام لمالك بن النمط الهمداني حيث جاء فيه: "وكتب له عهده على همدان أحمورها وعربها وخلائطها ومواليها"[3].

فالإشارة الواردى إلى عرب همدان تعني البدو. وهذا المعنى تؤيده رواية عن وفد همدان عندما قدموا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قالوا له: "يا رسول الله نصيّة من همدان من كل حاضر وباد"[4]. فالتمييز هنا صريح بين المتحضرين والبدو من همدان وهو يعني المعنى نفسه الوارد في النص السابق "أحمورها وعربها". وقد فسّر عمرو بن يحيى بن سلمة الهمداني كلمة (عربها) الواردة في العهد المذكور بأنها تعني أهل البادية[5]. وهكذا وردت في النقوش.

اليمنية القديمة التي تعدُّ من أصدق واقدم مصادر تاريخ اليمن في عصورها الغابرة[6] ومع بزوغ الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية ورد في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك إذ جاء قوله تعالى "قالت الأعراب آمنا" إشارة إلى البدو[7]. فالنص يعبر عن وضعية حضارية وعن نمط من أنماط الإنتاج هو الإنتاج الرعوي ترتب عليه وضع اجتماعي ما.

بالإشافة إلى ذلك فقد ذكر ابن الكلبي أعراب قبيلة همدان بالقبائل العربية التالية: أرحب، ونهم، وشاكر، ووداعة، ومرهبة، ودالات، وخارف، وعذر، وحجور[8]. ومن البادية أيضاً بني رازح ورشوان والأزمع من خولان[9].

وهنا لابد من الإشارة إلى ناحية هامة عند الحديث عن القبائل اليمنية المتبدية. فالاصطلاح "بدو" و "بدوي لم يقتصر استخدامه على الذين فرضت عليهم ظروفهم الإقامة في البادية فأصبحو بدواً بل شمل هذا المصطلح بعض المدن ولكن ليس بالمعنى السابق أي سكان البادية إنما قصد منه هنا حاشية القبيلة التي تسكن المدينة من الأعراب الوافدين إليها والمتوضعين بقربها، فمثلاً يقال بادية قبيلة رادع: الربيعيون، والزياديون،

وبنو حبيش من زبيدة[10]. ومدينة الكدراء باديتها من قبيلة عك[11]، وجيشان، باديتها من قبيلة سبأ الصهيب. أي إن الأعراب توغلوا إلى داخل اليمن وسكنوا حول بعض المدن.

ومع ذلك لابد لنا من القول إن أعراب اليمن في القديم كوّنوا نسبة كبيرة من مجموع سكان اليمن، ويمكن التعرف على أماكن وجودهم من خلال أمور عدة منها ما يتعلق بلغتهم ومن افتقار أسماء مواضعهم أو قبائلهم لكلمة (ذو) التي تعبر في اليمن عن الملكية الاقتصادية وخاصة ملكية الأرض[12]. فقبائل مذحج وخولان من القبائل التي تذكر المصادر وجود (أذواء) فيها. وتشير المصادر التاريخية القديمة إلى أن القبائل اليمنية قد بدأت تظهر إلى الوجود السياسي منذ عهد ملوك الدولة المعينية أي منذ حوالي (1300–630 ق.م)[13]. حيث أخذت القبائل تشغل دوراً مهماً في سياسة بلاد العرب الجنوبية، ومثال تلك القبائل قبيلة همدان التي تمكنت من اغتصاب الملك من قبيلة سبأ[14].

هذا وقد بقيت القبيلة اليمنية على حالها في فترة ما قبل الإسلام محتفظة بنظمها الاجتماعية وتقاليدها وأعرافها القديمة وتقسيماتها السياسية والمكانية على الرغم ن عمليات التحالف والاندماج السياسي التي كانت تتم فيما بينها عبر العصور الماضية[15].

من جانب آخر عرفت القبائل اليمنية في المصادر العربية بالقبائل الجنوبية أو القبائل القحطانية. وكانت هذه القبائل قبل الدعوة الإسلامية تقسم إلى ثلاث جماهر قبلية كبيرة هي: حمير، وهمدان، ومذحج. وقد ارتبطت هذه الجماهر الثلاث بنسب مشترك واحد قادها إلى سبأ حفيد قحطان ووالد حمير وكهلان الفرعين الرئيسيين لعرب الجنوب[16].

وتظهر لنا النقوش الحميرية المكتشفة أن قبائل حمير ومذحج لم تستطع أن تحافظ على وحدتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في تاريخها القديم على اعتبارات عملية التغيير والتحول كانت أمراً مألوفاً، وأن هذه القبائل كانت في أحوال كثيرة تضطر إلى أن تقيم بينها وبين غيرها من القبائل المجاورة نوعاً من الأحلاف السياسية القبلية كما كانت في بعض الأحيان تطلب الدخول في حماية قبيلة أخرى قوية[17].

وقد أدى ذلك إلى نوع من التحول في عملية الانتساب لبعض تلك القبائل وخاصة أنها كانت قد فقدت روحها القتالية وخضعت حياتها السياسية لسلطة الدولة المركزية، ومن ثم اتجه غالبية السكان فيها إلى أعمال الزراعة والارتباط بالأرض وبشكل خاص في المناطق التي كثرت فيها المياه من الينابيع والأمطار وبذلك أخذت ظاهرة البداوة فيها بالتراجع مع مرور الزمن [18].

ويرجح أن اضمحلال التجارة في نهاية الفترة التي كانت فيها الدولة الحميرية تحكم اليمن قد أدى بدوره إلى اتجاه تلك القبائل إلى العمل الزراعي، وقد كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية إلى حد ما على الأتاوات والضرائب والرواتب المالية وذلك مقابل السماح بمرور قوافل التجارة في أراضيها وحمايتها لها أثناء عبورها[19].

ومن جهة أخرى إن الحكم في اليمن كان حكماً ملكياً وراثياً في الأبناء والأخوة. غير أن هذه الملكية لم تكن مطلقة بل كانت مقيدة بـ(مجالس) تمدُّ الملك بالشورة وفي المسائل التشريعية. وقد ذكر وهب بن منبه وغيره من الأخباريين أنه كان للنساء اليمنيات حق وراثة العرش[20]. وقد اتفقت المعلومات مع ما ورد في القرآن وهو أصدق المصادر وأقدمها وذلك من خلال قصة ملكة سبأ والنبي سليمان عليه السلام في سورة النحل إذ قالت: لما ألقي إليها كتابه يطلب منها أن تأتيه مسلمة قالت: "يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون".

من جانب آخر تشير بعض المصادر القديمة إلى بعض النظم الخاصة بتنظيم العمل والإنتاج، وهي النظم التي كانت تخضع لنوع العلاقة بين الملك من ناحية وزعيم القبيلة من ناحية أخرى وذلك من خلال إبرام الاتفاقيات بينهما والمتعلقة بتحديد الضرائب التي يجب دفعها للدولة. وقد ذكر أن الضرائب جميعها التي كان الملك يفرضها على زعماء القبائل تحصّل عادة من محصول الأرض نفسه وغالباً ما يجري تقديرها قبل جمع المحصول، وهذا يعني أنه كان من حق الدولة –إذا اقتضى الأمر– أن تستولي على المحصول الزراعي عن طريق قيامها بتقدير المحاصيل في الحقول أو على الأشجار وذلك لضمان تحصيل الضرائب المقررة، وقد أشار (النويري) إلى هذه الناحية وذلك من خلال النص الوارد في رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن بعد قيام الدعوة ودخول اليمنيين بالإسلام، مبيناً فيه رفع الأحكام الضريبية الجائرة التي كانت تفرض على المزارعين اليمنيين المغلوبين لما عليهم من الخراج والكلف والأثقال[21]، بقوله صلى الله عليه وسلم: "ومن أجبي فقد أربى".

وقد فسر النويري ذلك بأولئك الذين كانوا يشترون المحاصيل الزراعية قبل نضجها بأثمان منخفضة في المجتمع اليمني القديم[22]. ومقابل جباية الدولة لهذه الضرائب كثيراً ما كانت تقوم الحكومات اليمنية بمشاريع كبيرة ومتنوعة غايتها خدمة الزراعة كشق الطرق وحفر الآبار والصهاريج وبناء السدود[23] وأقنية الري[24].

لكن الأمر الملفت للنظر أن هذه العمليات الاصلاحية جميعها كانت تتم بأيدي الطبقات المحرومة في المجتمع اليمني عن طريق ما يعرف بـ(السخرة) وقد أوضح ذلك نقوش يمنية قديمة مكتشفة يعود تاريخها على عصر الدولة السبئية[25] وعصر الاحتلال الحبشي لليمن[26].

ويبدو أن الحياة الزراعية في المجتمع اليمني كانت على درجة كبيرة من الأهمية خصوصاً في عصر الدولة السبئية، جنباً إلى جنب مع التجارة[27]. ولهذا نجد أن هناك أكثر من فئة اجتماعية استخدمها إقطاعيو اليمن القدماء في الزراعة وقد أشارت مصادر يمنية عديدة إلى ذلك. على سبيل المثال، ورد في كتاب (الوثائق السياسية اليمنية) نص الرسالة التي بعث بها الرسول (ص) إلى بني عبد كلال من حمير والتي أظهرت لنا فيها تلك الفئات المنتجة بقوله عليه الصلاة والسلام: "وليس في رقيق ولا مزرعة ولا عمالها شيء... وليس في عبد مسلم ولا فرسه شيء"[28]. فنحن هنا أمام الفئات ثلاث كانوا يعملون بالزراعة في مزارع بني عبد كلال هم (رقيق، وعمال، وعبيد فرسان). غير أننا نجهل أصول هذه الفئات وعلاقتها بالأرض وبالمالك ونظام عملها. رغم أن وجود هذه الفئات في مجتمع زراعي يقتضي أن يكون الرقيق للأعمال الصعبة والعمال للري أما العبيد الفرسان فعلى الأرجح أنها كانت بمثابة جيش محلي يقوم بأعمال الأمن والحراسة وفي هذا الصدد يذكر (جروهمان). أنه في بعض مناطق الجنوب العربي –عدن وحضرموت– توجد إلى الآن جماعات تسمى (العساكر) وهم كالأتباع لصحاب السلطة في المدينة[29]. أما الرقيق فقد أشارت المصادر القديمة بكثرة إلى وجودهم في المجتمع اليمني القديم، فقد ذكر أنه كان لذي الكلاع عبيد تراوح عددهم بين 4–12 ألف عبد[30]. وامتلاك بني طيف –من كندة– للعبيد[31]. وكذلك امتلكت عك وذي خيوان وهمدان[32].

وما دمنا في الحديث عن العبيد في مجتمع اليمن القديم، لابد من الإشارة إلى صنوف هذه الفئة الاجتماعية التي كانت تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التي يأنف الإنسان الحر من ممارستها، فقد يكون العبيد مستوردين من زنوج إفريقيا أو من الرقيق الأبيض من أسواق العراق وبلاد الشام أو من أن يكون مصدره إحدى القبائل الضعيفة التي تغزوها قبيلة كبيرة.

والعبد في العرف اليمني ملك خاص كسائر الأموال المنقولة يتصرف به صاحبه كيفما يشاء. وكان بعض العبيد في اليمن مرتبطين بالأرض يباعون ويشترون معها بينما كان بعضهم الآخر يمتلك حرية التنقل والعمل كما يذكر الهمداني... وغيره[33].

بالإضافة إلى ذلك فقد أشارت مصادر عديدة إلى تنوع صفوف محاصيل اليمن الزراعية[34]. ومما ذكرته من محاصيل زراعية المر، والبخور، والقرنفل، والعطور، والطيوب، والصمغ، والكافور، والورس[35]. والقطن والنخيل والعنب –الذي قال عنه الهمداني أنه يثمر مرتين في العام[36]– ثم سائر أصناف الحبوب والفواكه والبن والموز[37]. والمشمش والبرقوق وقصب السكر والأقاوية والأزهار واللبان والعنبر والكمثرى والقمح الفاخر[38].

ونظراً لجمال اليمن وكثرة خيراتها، فقد ذكره الإغريق في مصادرهم باسم بلاد العرب السعيدة كذلك المصادر الرومانية. وجاء في سورة سبأ قوله تعالى: "كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال"[39].

فإذا كان وضع الزراعة ومحاصيلها في اليمن القديمة فما عسانا أن نتصور وضعها من الناحية التجارية؟.

تذكر بعض المصادر التاريخية أن حضارة اليمن قامت –إلى حد كبير– على التجارة وذُكر أنه كان لطبقة التجار اليمنيين نفوذ ونشاط هام جداً ابتداءً من الأسواق الداخلية مروراً بالأسواق العربية داخل الجزيرة العربية وانتهاءً بالأسواق الدولية المجاورة[40].

وقد ساهم الموقع الجغرافي لبلاد اليمن القديمة مساهمة كبيرة في عملية توسيع نشاط التاجر اليمني نظراً لتوسط بلاده بين أمم العالم القديم. وهكذا عمل اليمنيون وسطاء للتجارة بي نالهند وبلاد الشام والعراق ومصر وشهدت شواطئهم إنشاء موانئ عديدة لتلبي النشاط التجاري العالمي المزدهر فكان ميناء (موزا – مخا الحالية). لا يقتصر على استقبال السفن فحسب بل كان مكاناً لإنشاء السفن التجارية أيضاً، كما برز ميناء (عدن) واحداً من الموانئ الشهيرة في اليمن على جانب ميناء (قارة) –حصن الغراب– وميناء ظفار الذي كان خصوصاً مرسى للسفن الصاعدة إلى الخليج العربي في طريقها إلى بابل[41].

وعن طريق هذه الموانئ كانت لآلئ الخليج العربي وحرير الصين وسيوف الهند وتوابلها والعاج الإفريقي والذهب الأثيوبي تصل إلى مصر وبلاد الشام بواسطة القوافل اليمنية البرية التي كانت تحملها عن طريق صنعاء ومأرب وظفار. وقد تمكن التجار اليمنيون من السيطرة على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد[42]، ولم يلبث نفوذهم السياسي أن أدرك شمال الحجاز وأطرافه فخلت معان وديدن (العلا) في نطاق هذا النفوذ وكان المعنيون والسبئيون يقيمون نواباً عنهم وحاميات عسكرية في الواحات الهامة التي يمر بها الطريق التجاري كتيماء ومعان وديدن، تمكيناً لمصالحهم التجارية كذلك سيطر السبئيون على الطريق البحري للتجارة الهندية عبر البحر الأحمر، وكان لهم اسطولهم التجاري الكبير الذي يتولى نقل هذه التجارية إلى بلاد الشرق الأدنى القديم[43]. وقد أثرى اليمنيون بسبب ذلك ثراءً فاحشاً إلى درجة وصفت هذه الطبقة في تاريخ الطبري بأن أفرادها كانوا يأكلون بصحائف من ذهب وفضة، ويأكلون على طريقة الروم والفرس بسكاكين وشوكات مصنوعة من الذهب والفضة وكانوا يتحلون بالخواتم المصنوعة من الذهب تزينها أحجار كريمة[44].

وقد جاء في القرآن الكريم[45] والتورات[46] تأييد لما ذكرته المصادر التاريخية القديمة حول ثراء اليمنيين الكبير وذلك من خلال قصة زيارة ملكة سبأ للملك سليمان وما اقترن بذلك من مظاهر الترف المفرط.

ويبدو أن هذه الثروة الهائلة التي كسبتها تجارة اليمن في العصور القديمة تعود لتوفر أسباب الربح عند اليمنيين كما يذكر المؤرخون العرب والكلاسيكيون من صنوف التجارات التي كان لها رواج عال في أسواق روما وبلاد الفرس... وغيرها.

فقد أشار المؤرخ الروماني (بلينيوس) إلى الحجم الهائل لمستوردات روما من بلاد العرب الجنوبية في أواسط القرن الأول الميلادي من هذه المواد بقوله: "إن بلاد العرب تأخذ منا كل عام (100) مليون سستركة (sesterces) –عملة رومانية– وهذا ما يكلفنا ترفنا ونساءنا"[47].

وقد تحدث بالمعنى نفسه الجغرافي (سترابون) في مجال وصفه لأسباب الحملة الرومانية التي جردها (أوغسطوس) الامبراطور الروماني بقيادة (إيليوس كالوس) عام 24 ق.م على بلاد العرب الجنوبية بقوله: "إن الحافز الذي دفع الامبراطور إلى احتلال بلاد العرب هو ما سمعه عن ثروة سكانها وما تنتجه من أنواع الخيرات ومن ثم كان هدفه كما يذكر "التعامل معهم كأصدقاء أثرياء أو السيطرة عليهم كأعداء أثرياء"[48].

وقد علل الكاتب الموسوعي الروماني (بلينيوس) أسباب تكدس هذه الأرباح والثروات عند اليمنيين بقوله: "إن العرب يبيعون ما يستخرجون من لآلئ البحر وما تنتجه غاباتهم من الطيوب إلى الرومان والفرس دون أن يشتروا شيئاً بالمقابل من أسواق هذه البلدان" [49].

فإذا كان هذا وضع اليمنيين من الناحية التجارية فكيف يمكن تصور حياتهم الصناعية والحرفية؟ في بداية الأمر لا بد لنا من ذكر حقيقة ثابتة مترسخة في طبع المجتمع العربي القديم بقسميه الشمالي والجنوبي على حد سواء هذه الحقيقة هي أن الإنسان العربي الحر نظر إلى الصنعة والصنائعيين والأعمال الحرفية بشكل عام نظرة ازدراء واحتقار على اعتبار أنها تقيد حريته وتضع حداً لحركته وهذه اعتبارات مرفوضة بنظره. ومن هنا انحصرت مزاولة مهنة الحرف الصناعية بالطبقات الدنيا من المجتمع العربي بشكل عام وبالمجتمع اليمني بشكل خاص. بل لم تقف نظرتهم الاجتماعية عند هذا الحد. فقد كانت العرب إذا أرادت تحقير إنسان وشتمه بعبارة تكون مجمع السباب قالوا له: "يا ابن الصانع". ومن هذا الجانب جاء تعبير عرب الشمال إلى أخوانهم عرب الجنوب بأنهم كانوا "ما بين دابغ جلد أو ناسج برد أو سايس قرد أو راكب عرد"[50].

ومما يؤيد انتشار الصناعة في بلاد العرب الجنوبية قول أمية بن خلف في هجاء الشاعر المخضرم اليمني حسان بن ثابت:

ألـيس أبـوك فينـا كـان قينـاً ... لـدى القينـات فسـلاً فـي الحفـاظ

يمانيـاً يظـل يشـد كيـراً ... ويـنفخ دائبـاً لهـب الشـواظي[51]

ومن المؤكد تاريخياً أن اليمنيين في عصور ما قبل الإسلام كانوا أكثر تحضراً من أخوانهم عرب الشمال وقد أكد هذه الحقيقة كثير من المؤرخين المحدثين الذين بنوا رأيهم هذا على ما قرأوه من كتابات مكتوبة على رقم مكتشفة وعلى ألواح معدنية أو حجرية يعود تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد[52]. وهذا يدل على المستوى الحضاري الرفيع الذي كانوا عليه. ومن هنا نجدهم يستوعبون أخوانهم عرب الشمال الذين وصفوهم بالأوصاف غير اللائقة بسبب مزاولتهم الأعمال الحرفية ولم يقفوا عندها فتنوعت صناعاتهم وانتشرت بشكل واسع في سائر أجزاء اليمن إلى حد استطاعت (من خلاله) أن تغطي متطلبات السوق المحلية وتصدير الفائض إلى أسواق شبه الجزيرة العربية وخارجها من الدول الأجنبية كأسواق بلاد الفرس والروم والحبشة.

ونحن إن قررنا تنوع صناعة اليمن فإننا نعني ما نقوله حقاً على اعتبار أن اليمنيين كانوا قد زاولوا العديد من الصناعات بأشكالها وألوانها المختلفة دون أن يكون هناك تخصص في صناعة محددة واحدة وقد ساعدتهم على ذلك عوامل محلية عديدة منها:

1- توفر المواد الخام اللازمة لقيام صناعاتهم من المواد المعدنية والنباتية والحيوانية.

2- توفر الأيدي العاملة اللازمة لقيام هذه الصناعات على اعتبار أن مزاولي الحرف الصناعية هم من الفئات الاجتماعية نفسها التي كانت تقوم بالأعمار الزراعية أي من طبقة العبيد والرقيق والفئات المستضعفة إلى حد كبير في مصانع الأثرياء والطبقة الحاكمة بشكل عام[53].

3- توفر الأسواق اللازمة لتصريف المنتوجات في الداخل والخارج وجني الأرباح المغرية.

وعلى هذا الأساس قامت عند اليمنيين القدماء صناعات متنوعة نسيجية ومعدنية ونباتية وحيوانية.

وحول صناعة النسيج عند اليمنيين ذكرت مصادر عديدة ازدهار هذه الصناعة عندهم وتنوعها كصناعة المنسوجات الحريرة والقطنية والصوفية والكتانية وغيرها.

والأمر الملاحظ هنا، إن كل مدينة من مدن اليمن أو منطقة من مناطقها اشتهرت بصناعة منسوجات معينة، كما تسمت بعض الملابس اليمنية باسم مكان صنعها أو القبيلة التي صنعتها فمنطقة حمير ازدهرت بها صناعة النسيج في عدة مناطق وأشهر ما عرفت به الثياب، وأهمها البرود اليمانية، وقد سميت العديد من الملابس باسم القبائل والمدن التي تمت صناعتها بها أو على أيدي أفراد قبيلتها من حمير مثل العمائم والبرود العدنية [54]. والبز الصنعاني[55]. -نسبة إلى قبيلة شرعب الحميرية- والسحولية[47] والمعافرية[58] والجيشانية[59]، والحضرمية[60] والجندية[61]، والسديرية[62].

كما اشتهرت نجران بزراعة القطن وصناعة الأنسجة الحريرة وبشكل خاص البرود النجرانية حيث كان انتاجها واسعاً من هذا الصنف بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهل نجران على ألفي حلة تدفع على مرحلتين[63].

كما اشتهر اليمنيون في الحيرة بصناعة نسيج الحرير إلى جانب صناعة الكتان والصوف[64]. والزرابي -أي صناعة السجاد- [65].

وقد أيدت الكتابات اليمنية القديمة المكتشفة قيام هذه الصناعات في بلاد العرب الجنوبية. ففي نقش صرواح العظيم الذي اكتشفه المستشرق (إدوارد غلازر) (الذي يعود تاريخه إلى أقدم عصور الدولة السبئية). وردت بعض أخبار انتصار أحد ملوك سبأ على أعدائه من أهل (كحد سوطم) اليمنية إثر نشوب معركة حربية بينهما أسفرت عن انتصار الملك السبئي ثم أخذ يعدد غنائمه من المال والأسرى فذكر أنه أسر من أعدائه من جملة ما أسر (2000) ألفي حائك[66]. فإذا كان هذا الرقم صحيحاً تظهر لنا بشكل جلي تملك النسبة الكبيرة من اليمنيين الذين كانوا يزاولون هذه المهنة.

ولم تكن الصناعات المعدنية والتعدين عند اليمنيين القدماء أقل شأناً من الصناعة النسيجية بل كانت على درجة عالية من الأهمية نظراً لتوفر العديد من الخامات المعدنية في مناطق مختلفة من أرضهم، وأهم هذه الخامات معدن الذهب، حيث وصف (تيودور الصقلي) ذهب مناجم بلاد العرب، بأنه ذهب خالص للغاية لا يحتاج إلى صهر[67]. وليس أدل على وفرة ذهب اليمن مما قاله الملك الحميري سبق بن ذي يزن لكسرى عندما نثر دراهمه على خدم القصر قائلاً: "ما أصنع بالمال وتراب أرضي من ذهب وفضة".[68]

ومن معادن اليمن أيضاً الرصاص والفضة والحديد[69]. أما الأحجار الكريمة فمنها العقيق الذي يكثر في جبل شبام وفي مخاليف صنعاء[70]. ومن خامات الأحجار الكريمة أيضاً معدن (الجزع) -نوع من العقيق-

وأجوده الذي يعرف (بالجزع البقراني) -نسبة إلى منطقة بقران اليمنية- ومن النوع المعرق منه تصنع الأواني [71].

ويعد العنبر مصدراً هاماً من مصادر ثروة اليمن في العصور القديمة ويكثر وجوده في سواحل عدن وما يليها [72]. كما ويستخرج اللؤلؤ من منطقة عدن وعمان[73].

لقد دفعت حاجة الإنسان إلى المعادن لاستخراجها واستخدامها في أموره الحياتية المتنوعة بعد استخلاصها من المواد الغريبة المختلطة بها ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى خلطها بمعادن أخرى لإيجاد أنواع جديدة منها كمعدن البرونز. وقد أيد القرآن الكريم قيام هذه الصناعات حيث جاء في قوله تعالى: "ومما يوقدون عليه النار ابتغاء حلية أو متاع"[74].

ويبدو أن اليمن القديمة كانت في مقدمة أجزاء جزيرة العرب في الصناعة ولا نكاد نجد في جزيرة العرب مكاناً يسبقها فيها. وإذا ما تفحصنا هجاء الشاعر الجاهلي أمية ابن خلف لحسان بني ثابت في البيتين اللذين وردوا فيما مضى وهما:

من شعر أمية هذا نستنتج أنه يعير حساناً بوالده الحداد، وربما لا يقصد والده بالذات وإنما يريد آباءه وأجداده اليمنيين، إذ المعروف أن حسان بن ثابت من بني النجار، ثم من الخزرج، وينتهي نسبة إلى قحطان، فهو إذا من أصل يمني[75]. وربما لا يكن أحد من أهل حسان حداداً، فعندها يكون المقصود أهل اليمن وفي هذه الحالة يمكننا الاستنتاج أن صنعة الحدادة كانت منتشرة عند اليمنيين القدماء، خاصة وهو يقول في مطلع البيت (يمانياً) ويقصد نسبته إلى اليمن. هذا مع العلم أن (معالة) أم حسان كانت امرأة من القين وإليها كانوا ينسبون[76].

ومهما يكن من أمر، فقد كانت اليمن في مقدمة المناطق العربية القديمة في صناعة السيوف. وكان لسيوف (بيجان) شهرة خاصة لدقة صياغتها وجودة حديدها[77].

وقد اشتهرت بعض السيوف اليمانية في الجاهلية، وبقيت شهرتها خالدة في الإسلام، ومن هذه السيوف سيف عرف بـ (الصمصامة) وهو سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي[78]. وسيق عرف بـ (ذي الفقار) ارتبط اسمه باسم علي بن أبي طالب رضي الله عنه استولى عليه في معركة بدر أخذه من العاص بن منبه[79] الذي قيل أنه كان واحداً من السيوف السبعة التي أهدتها بلقيس ملكة سبأ إلى سليمان[80].

إلى جانب ذلك اشتهر اليمنيون بصناعة الرماح وتهذيبها وعرف العديد من أسمائها في مختلف بلاد العرب كالرماح (الردينية)[81] و (اليزينية)[82]. كما صنعوا الدروع المعدنية بأنواعها كالدروع (السلوقية)[83] و (التبعية) و (اليلب)[84].

ومن المثبت تاريخياً أنه لم يكن عبد الملك بن مروان أول عربي صك النقود العربية بل سبقه إلى ذلك العرب اليمنيون منذ قرون قديمة تعود إلى ما قبل الميلاد وصنعت تلك النقود، بأنه كان على أحد وجهيها صورة جانبية لملك يمني متوج... وعلى الوجه الآخر صورة بومة. والبومة شعار لمدينة أثنية اليونانية. ومعنى هذا يدل على أن اليمنيين توخوا في صك نقودهم قواعد أثينية[85]. وقد صك اليمنيون نقودهم هذه من الذهب والفضة والنحاس وقد عثر المنقبون في المواقع القديمة من اليمن على كل نوع من هذه الأنواع[86].

ومن الصناعات الهامة التي أجاد اليمنيون القدماء بصنعها الجلود ودباغتها ويبدو أن الطلب كان كثيراً على الصناعات الجلدية اليمنية إلى درجة دفع اليمنيين إلى استيراد الجلود من شرق إفريقية بالإضافة إلى ما ينتجونه هم من بلادهم لتغطية حاجة أسواقهم[87].

ويبدو أن اليمنيين استخدموا صناعة الجلود لأغراض عديدة كصناعة الأحذية والسياط وأدم الكتابة. وما يخدم الأغراض الحربية كواق للجسم من ضربات السيوف ومن تساقط السهام عليه بالإضافة إلى صنع الخوذ والتروس. كما استخدمت الجلود في صناعة سروج الخيل ولجامها ورسنها كما استخدموا فراء مختلف الحيوانات في الأيام الباردة[88].

وقبل أن ننهي بحث الصناعة اليمنية لا بد لنا من الإشارة إلى بعض الصناعات المتفرقة التي مارسها اليمنيون إلى جانب ما قدمنا، وأبرز ما يمكن ذكره هو حرفة النجارة.

لقد عمل اليمنيون بحرفة النجارة بما يخدم أغراضهم المتعددة ابتداءً من متطلبات الطعام[89] مروراً ببناء القوارب للصيد والتجارة [90] وانتهاءً ببناء المساكن [91]. ومما يثبت صحة هذا الأمر أن علماء الآثار تمكنوا من اكتشاف ألواح خشبية ونوافذ خشبية أخرى في اليمن وحضرموت تعود إلى عهد الممالك اليمنية القديمة منقوشة نقشاً بديعاً ومحفورة حفراً يدل على تمكن النجار من مهنته وحسن استخدامه لأدوات النجارة في صنع النفائس والطرائف من الخشب[92].

وإلى جانب ذلك، فقد عرف اليمنيون القدماء معدن الكبريت فاستخرجوه من مصدره الرئيسي في أرضهم من مواقع (ذمار) ومنه يجلب إلى سائر أعمال اليمن[93].

أما ما يتعلق بالملح، فقد ذكر الهمداني أسماء مواضع عديدة وجدت فيها معادن الملح وقد أشير في كتابات المسند إلى الملح وإلى الإتجار به وإلى وجود كيالين كانوا يكيلونه ويرسلونه إلى الأسواق لبيعه فيها[94].

كما ركب اليمنيون الدواء من بعض النباتات الطبيعية واستخدمت في الإستطبابات المتنوعة كما يذكر الإخباريون[95] القدماء.

ونحن في ختام هذا البحث لو حاولنا أن نلخص كل ما سبق عن خيرات اليمن في تاريخها القديم لم نجد وصفاً أنجع وأشمل مما جاء به المقدسي بقوله: "... واليمن معدن العصائب، والعقيق، والأدم، والرقيق، فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم، والساج، والسماسم، والعاج واللؤلؤ، والديباج، والجزع، واليواقيت، والأبنوس، والنارجيل، والقند، والإسكندروس، والصبر، والحديد، والرصاص، والخيزران، والغضار، والصندل، والبلور، والفلفل، وتزيد عدن بالعنبر، والشروب، والدرق، والحبش، والخدم[96].

وفي مكان آخر يقول: "ومن خصائص نواحي هذا الإقليم -أي اليمن- أديم زبيد ونيلها الذي لا نظير له كأنه لازورد، وشروب عدن تفضل على القصب، ومسد المهجرة يسمى ليفاً، وبرود سحولا والجريب، وأنطاع صعدة وركاءها، وسعيدي صنعاء وعقيقها، وقفاع (عثر) وأقداح (حلى).. وكندر مهرة وحيتانها وورس عدن ومصين عمان..."[97].

الهوامش

1- ابن منظور: اللسان، ج4 ص 197 وما بعدها، مادة (حضر).

2- ابن العبري (غريفوريوس الملطي): ت، 1286ن تاريخ مختصر الدول، ص 158 وما بعدها. بيروت، 1958م.

الزبيدي: تاج العروس، ج 3 ص 594، مادة (وبر).

ابن منظور: اللسان، ج1 ص 586.

3- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1 ص 2، 73. برلين مؤسسة النصر بدون تاريخ. ابن الأثير: أسد الغابة، ج4 ص 224.

ابن حجر العسقلاني: الإصابة، ج3 ص240. القاهرة بدون تاريخ.

الهمداني: الإكليل ج2 ص 103. القاهرة، 1966م.

4- ابن هشام: السيرة، ج4 ص 244، مصر 1936/. ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج1 ص 134. القاهرة 1948م.

5- ابن الأثير: أسد الغابة، ج4 ص 324.

6- خالد العسلي: مجلة العرب، الأعراب في النقوش العربية القديمة، ج5 ص 410 دار اليمامة، 1961م.

7- القرآن الكريم: سورة الحجرات، الآية14.

8- ابن سعد: الطبقات، ج6 ص 162. النويري: نهاية الأرب، ج18 ص 19. دار الكتب المصرية 1963م.

9- الهمداني: الأكليل. ج1 ص 324،323- 329،325. القاهرة 1962م.

10-الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 50. مطبعة السعادة بمصر.

11-المصدر السابق نفسه، ص 53-54.

12-المصدر السابق نفسه، ص 102.

13-جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام. يقال:"ذو ريدان وذو غمدان أي صاحب ريدان وصاحب غمدان" ص 152.

14-جواد علي: المفصل، ج2 ص 73. ديتلف نيلسن: تاريخ العرب القديم ص65.

15-فضل علي أبو أحمد غانم: البنية القبلية في اليمن. ص 7 الكاتب العربي 1985م. سيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ اليمن ص166 الاسكندرية 1968م.

16-هنا لا بد من الإشارة إلى أن القبيلة اليمنية لم تحتفظ بنظمها في العصر القديم فحسب بل استمر ذلك بعد قيام الدعوة ولكن تم تطويع النظم القبلية مع التعاليم التي جاء بها الإسلام.

17-نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم. ص 33 دمشق 1985م.

18- نزار الحديثي: تاريخ اليمن ص 90.

19-علي محمد زيد: معتزلة اليمن ص49 صنعاء 1981م.

20-نزار الحديثي: مرجع سابع ص 69.

21-وهب بن منبه: التيجان ص 58-59. ابن خلدون:العبر ج2 ص 58. جواد علي: المفصل، ج2 ص526،107.

22-القرآن الكريم: سورة النحل، الآية، 32.

23-ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، المطبعة العثمانية مصر، 1311هـ.

24-النويري: نهاية الأرب، ج6 ص 371-373، القاهرة 1963م.

25-الهمداني: الإكليل، ج8 ص115. الألوسي: بلوغ الأرب، ج1 ص 203.

26-محمد عبد القادر بافقية: تاريخ اليمن القديم، ص 196-197. بيروت، 1973م.

27-المرجع السابق نفسه، ص 199. نبيه عاقل: مرجع سابع ص 96. السهيلي: الروض الأنف، ج1 ص 63. القاهرة 1971م. ياقوت الحموي: المعجم، ج4 ص 395.

28-محمد عبد القادر بافقية: مرجع سابق ص 199. سلطان ناجي: التاريخ السياسي لدول اليمن القديم، ص 43-44.

29-بافقية. مرجع سابق ص 64.

30-محمد بن علي الحوالي: الوثائق السياسية اليمنية، ص 106-107 بغداد 1976م.

31-جروهمان: تاريخ العرب القديم، ص 123.

32-ابن حجر: الإصابة، ج2، ص 428. القاهرة بدون تاريخ.

33-الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص 166. مصر بدون تاريخ.

34-الحيدر أبادي: مجموعة الوثائق السياسية العائدة للعهد النبوي، ص 152 القاهرة 1956م.

35-الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 226-227. حسين مروة: النزعات المادية، ج1، ص 200-201.

36-المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص 161، دار الأندلس بيروت، بدون تاريخ. نشوان الحميري: منتخبات، ص 13. ابن خلدون: العبر، ج2، ص 253. بولاق 1284هـ. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 43. ياقوت الحموي: المعجم مادة (يمن)، ص 448. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 87.

37-أبن حوقل: صورة الأرض، ص 43. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 87.

38-الهمداني: الإكليل، ج8، ص 49. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 43.

39-الهمداني: الإكليل، ج8، ص 201، 526. ج2، ص 11-12، 16.

40-المصدر السابق نفسه، ج2 ص 336،318.

41-القرآن الكريم: سورة سبأ.

42-عبد الله الثور: هذه هي اليمن، ص 156. ط ثانية 1979م.

43-جرجي زيدان: تاريخ العرب قبل الإسلام. ص 178. دار الهلال بدون تاريخ.

44-سيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدول العربية. ص 10 مؤسسة شباب الجامعة بدون تاريخ.

45-المرجع السابق نفسه، تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ص 137، 140 الاسكندرية 1968م.

46-الطبري: التاريخ، ج2، ص 492. البلازري: أنساب الأشراف، ج1، ص 374. جواد علي: المفصل ج4، ص 545.

47-القرآن الكريم: سورة النحل، الآية، 22-24.

48-الكتاب المقدس: سفر الملوك الأول، إصحاح10. آية 1-2.

49-Plimnirs: Hn, x111.84

Strabo: xv 1.4,:22-50
Plinirs: HN, v1.162-51

52-ابن حجر: الإصابة، ج2، ص 428. القاهرة بدون تاريخ.

ياقوت الحموي: المعجم، ج5، ص 448. دار صادر بيروت 1977م.

53-ابن منظور: اللسان، ج7 ص 4446.

54-فيليب حتي: تاريخ العرب، ص 83 وما بعدها، دار غندور 1974م.

55-يذكر جواد علي في المفصل، "أن النقوش اليمنية القديمة المكتشفة تظهر أن ملوك اليمن كانوا قد أسسوا دوراً للنسيج.. تأتي بالمال إليهم من جملة الموارد الأخرى". المفصل ج5، ص 262. ط. ثانية بغداد 1978م.

56-البكري: (أبو عبد الله): معجم ما استعجم، ص 848. سيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ص 120. دار النهضة، بيروت 1970م.

57-نزار الحديثي: مرجع سابق ص 55.

58-ابن دريد: الاشتقاق، ص 371. ياقوت الحموي: المعجم، ج3 ص 275.

59-ابن سعد: الطبقات، ج2 ص 4، 67. ابن سيده: المخصص، ج4، ص 73. مصر 1319هـ. ابن دريد: مصدر سابق، ص 535. ط. لافولت بالأوفست بغداد بدون تاريخ.

60-الطبري: التاريخ، ج2، ص 108. دار المعارف بمصر 1961م. ابن دريد: مصدر سابق. ص 38.

61-البكري: مصدر سابق ص 420.

62-الأهدل: الدر المكنون في أخبار اليمن الميمون، ص 52. طب. أولى مصر بدون تاريخ.

63-الزمخشري: الأزمنة والأمكنة. ج2. ص 164. حيدر أباد الدكن 1332هـ.ط.أولى.

64-الحديثي: مرجع سابق ص 55.

65-الحيدر أبادي: الوثائق السياسية للعهد النبوي، ص 111 ط. ثانية القاهرة 1956م.

66-واضح الصمد: الصناعات والحرف، ص 38 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بدون تاريخ.

67-جواد علي: المفصل، ج4، ص 283. ابن منظور: اللسان، ج4 ص 534. دار صادر بدون تاريخ.

68-جواد علي:المفصل، ج2 ص 292.

69-فيليب حتي: تاريخ العرب ص 57. القارة 1953م.

70-وهب بن منية: التيجان، ص 304 حيدر أباد الدكن 1347هـ. ابن هشام: السيرة ج1، ص 63 القاهرة 1955م.

71-ابن رسته: الأعلاق، ص 97. الألوسي: مصدر سابق ج1 ص 204.

72-ابن حوقل: صورة الأرض، ص 44 بيروت 1963م.

73-الهمداني: الإكليل، ص 30 برنستون 1940. ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ص 36 ليدن 1885م.

74-المقدسي: مصدر سابق ص 102. ابن الفقيه الهمذاني: مرجع سابق ص 32.

75-ابن حوقل: صورة الأرض. ص 52.

76-القرآن الكريم: سورة الرعد، الآية، 17.

77-ياقوت الحموي: المعجم مادة (يمن). ص 447. دار صادر.

78-ديوان حسان بن ثابت الأنصاري: ص 5 ط. دار صادر بيروت بدون تاريخ.

79-الأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني، ج4، ص 134. مؤسسة جمال للطباعة بيروت بدون تاريخ.

80-جواد علي: المفصل، ج7 ص556.

81-الهمداني: الإكليل، ج10 ص 248. القاهرة 1368هـ.

82-جواد علي: المفصل، ج5، ص 423.

83-الزبيدي: تاج العروس، ج3 ص474. جواد علي: مرجع سابق الحاشية، ج5 ص 423.

84-الهمداني: الإكليل، ج10، ص 316. ديوان عنترة: ص 35. دار صادر بدون تاريخ.

85-الهمداني: الإكليل، ج2، ص 254. المفضليات: ص 428 ط. خاصة مصر 1976م.

86-ابن رشيق: العمدة، ج2 ص 230.

87-المفضليات: ص 98. الأنباري: شرح القصائد السبعة ص 414. عمرو بن كلثوم: المعلقة، البيت 67.

88-فيليب حتي: مرجع سابق ص 92. غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 121 ط. ثالثة 1979م.

89-جواد علي: المفصل، ج7، ص 487.

90-الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 69، 363. دار اليمامة 1974م.

91-المصدر السابق نفسه، ص 352. جواد علي: المفصل، ج7 ص 589 وما بعدها.

92-واضح الصمد: مرجع سابق، ص 23.

93-جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص 178. دار الهلال.

94-جواد علي: المفصل، ج7، ص 549 نقلاً عن تاج العروس للزبيدي، ج4 ص 123.

95-جواد علي: مرجع سابق، ج7 ص 545.

96-المرجع السابق، ج7 ص 571.

97-الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 53، 87، 102. ط. العادة مصرة.

المقدسي: مصدر سابق، ص 98. الهمداني: الإكليل، ج2 ص 238، 270، 278، 318. المقدسي: مصدر سابق، ص 97.

المصدر السابق نفسه، ص 97.